

الأبعاد الفكرية والإنسانية للأمير القادر الجزائري من خلال كتابات محمد الشريف السّاحلي

The intellectual and human dimensions of Prince Qader of Algeria through the writings of Mohammed al-Sharif al-

¹كرمة زيتون

¹ جامعة محمد بوضياف (المسيلة)، Karima.zitoune@univ-msila.dz

تاريخ النشر: 20-05-2025

تاريخ القبول: 27-04-2025

تاريخ الاستلام: 05-05-2024

ملخص:

مَنْ بين العديد من المؤلّفات العربية والأجنبية التي عَنَتْ بدراسة شخصية الأمير عبد القادر الجزائري، نجد قراءات جديدة وثريّة للباحث والمؤرّخ الجزائري محمد الشريف السّاحلي الذي ساهم من خلال كتابيه "الأمير عبد القادر الجزائري فارس الإيمان" و"تخليص التاريخ من الاستعمار" في إعطاء البعد الحقيقي لشخصية الأمير، والكشف عن مواطن الإنسانية والوطنية في أعماق وجدانه، حيث نجده في كتابه الأول يشرح فكر الأمير ويسرّد صفاته الذاتية والمعنوية فضلا عن جوانب القوة والشجاعة التي يتمتّع بها، في حين نجده يُرافع وبالبرهان عن الأباطيل المنسوبة إلى الأمير في كتابه الثاني، وعليه سنسعى من خلال هذه الورقة البحثية إلى تقديم صورة الأمير عند الشريف السّاحلي وكيف ساهم هذا الأخير في إضاءة بعض الجوانب الخفية من حياته، ومواقفه حيال بعض المواقف التي تعرّض لها الأمير خلال فترة جهاده ضدّ قوَّات الاحتلال الفرنسي.

كلمات مفتاحية: الأمير عبد القادر الجزائري؛ محمد الشريف السّاحلي؛ القيم الإنسانية، الجهاد؛ العقيدة

Abstract:

Among the many Arab and foreign books that dealt with the study of the personality of Prince Abdel Qader Al Jazaery, we find new and rich readings of the Algerian researcher and historian Mohamed Sharif Al Sahli, who contributed through his books "Prince Abdel Kader Al Jazaery, Knight

of Faith” and “Ridding History from Colonialism” to give the true dimension The personality of the prince, and the disclosure of the citizens and patriotism in the depths of his conscience, where we find him in his first book explaining the prince’s thought and recounting his personal and moral qualities as well as the aspects of strength and courage that he enjoys, while we find him pleading and demonstrating the falsehoods attributed to the prince in his second book, and accordingly we will seek from During this research paper, we present the image of the prince at the coastal sheriff and how the latter contributed to illuminating some of the hidden aspects of his life, and his attitudes towards some of the situations that the prince was exposed to during his jihad against the French occupation forces

Keywords: Prince Abdul Qadir Al-Jazaery; Mohammed Al-Sharif Al-Sahili; human values, jihad; creed.

⁽¹⁾ المؤلف المرسل: كريمة زيتون Karima.zitoune@univ-msila.dz

1. مقدمة:

تقتضي عملية توصيف وتحليل الأبعاد الفكرية والإنسانية للأمير عبد القادر الجزائري استحضار كافة أوجه النشاط الذهني والعملية المقرون بالموضوعية من أجل طرح جدّي للموضوع، وتناول مُحْكَمَ لحديثاته السّارية في صميم الدّراسات المعاصرة التي لا تزال وإلى غاية اليوم تبحث في شخصية الأمير وتثير قضاياها المبطّنة والمعلّنة، وفي سياقنا البحثي عن فحوى تلك الأبعاد، بجليّتها وخفيّتها، بأهميّتها ورمزيّتها، نقفز إلى أذهاننا فكرة مُحاورَة هذه التّقاط لدى المؤرّخ الجزائري المعروف بتأليفه الدّاعية إلى تحرير تاريخنا من قبضة الاستعمار، ويتعلّق الأمر بمحمد الشريف السّاحلي؛ المثقّف، المناضل والفيلسوف الذي خصّ مُعظم كتاباته للأمير عبد القادر، وإنّصافه من بعض التّهم المغلوطَة، المنسوبة إلى شخصه؛ فكانت رغبته في دراسة شخصية فارس الإيمان طموحا وتقديرا وتصحيحا، أبانهم بحقّ عندما وضع قضية الأمير عبد القادر بين "الأساطير الفرنسية والحقائق الجزائرية".

فما هي الصورة التي قدّمها لنا محمد الشريف السّاحلي عن شخصية الأمير عبد القادر الجزائري؟ وكيف تعامل مع بعض القضايا التي أريدض منها تضليل بعضا من مواقف الأمير المشرّفة؟

1. تقديم شخصيات الدراسة

1.1 محمد الشريف السّاحلي

وُلِدَ السّاحلي في السّادس من شهر أكتوبر من عام 1906م بسيدي عيْش ببجاية، تيّمّ في الحادية عشرة من عمره وعلى الرّغم من أنّه ينتمي إلى عائلة ثريّة نسبياً ، فقد اضطرّ إلى بيع حصّته من ميراث العائلة لمواصلة دراسته في الجزائر العاصمة ثمّ في باريس، تحصّل على بكالوريوس في الفلسفة ثمّ دبلوم دراسات عليا من جامعة السوربون وفي نفس الوقت فهو مدرّس لتلّبية احتياجاته في مدرسة ابتدائية في باريس (Achour CHeurfi، 2001، صفحة 312)، لقد أدرك السّاحلي بأنّ الوظائف الجامعية تبّعه نوعاً ما عن تحقيق رغبته الجامحة في القيام بنشاط فكري... فانفتح أمامه طريقان اثنان: طريق الانشغال بالروحانيات والطريق العملي، فالطريق الأوّل يعني التّكاسل والأناية والأمان وبذل أقلّ جهد ممكن، بينما يعني الطريق الثاني أن يرضى المرء معيشة الكفاف و عدم الاستقرار وتدهور الصحة وربما الرجوع في نهاية المطاف إلى درب التأمّل الباطني (عمار بلخوجة، 2015، صفحة 90)، بعد ذلك عاد إلى الجزائر قبيل الحرب العالمية الثانية، حيث اضطر إلى التّدرّس في مدرسة " توجة " الابتدائية، وفي الموسم الموالي (1940م . 1941م) نُقل إلى قسنطينة للتّدرّس بمعهد التقني، ويبدو أنّ السّاحلي قد عانى كثيراً في هذه العودة، ولاقى من الصّعوبات ما جعله يبحث عن مساحة أخرى، تكون بمنأى عن ترصّدات الإدارة الاستعمارية وأعوأها (محمد عباس، 2009، صفحة 87)، فهو الجامعي الذي ترشّح لنيل شهادة التّبريز بوظيفة معلّم ابتدائي! و يا ليت القناعة كانت كافية لإبعاد عيون الاستعمار (محمد عباس، 2009، صفحة 93)، وكيف لا يُراقب وهو الأهلي العربي الحامل لشهادة قد تعيق العملية الحضاريّة لجنرالات بلاد الغال العاكفة منذ 1830م على طمس الهوية و تجهيل العقول وإبعاد الجزائريين من مدارس التّعليم وركّب الحضارة و التّفدّم؟. إنّ التّعليم في هذه المرحلة كان يجب أن يكون على الطريقة الفرنسية، أنّ " يُجدّد كلّ الذّهنيات، يُنشئ داخل العقول كلّ الطرق التي سيمرّ عليها المستقبل نفسه، ويعجن الرّوح الجزائريّة على صورة الرّوح الفرنسيّة نفسها" (كميل ريسيلير، 2016، صفحة 361).

في هذه الأثناء التي عرفت عودة محمد الشريف الساحلي إلى مسقط رأسه بسيدي عيش (بجاية)، كان سجله الشخصي يحمل إشارات تنبيهية من لدن الإدارة الاستعمارية ، بمعنى أنه عاد إلى وطنه ومعه لعنة الدّقر (ب) " سجلّ الأهالي الذين ينشطون سياسيا " الذي يعتبره انفصاليًا، لذا ما أن مكث بسيدي عيش بعض الوقت حتى استدعاه حاكم البلدة ليقول له " لديّ ملفّ عندك " أي ما معناه عليك بالكفّ عن أيّ نشاط مشبوه و إلّا... (محمد عباس، 2009، صفحة 93)، وفي مدرسة توجة الابتدائية حيث كان معلّمًا، كان نصيبه فيها منذ البداية " القسم المتوسّط " (السنة الخامسة)، لكن سرعان ما لبث فيها بعض الوقت، لأنّ مدير المدرسة استقبل بعد الدّخول المدرسي معلّمًا فرنسيًا ، فأستكبر القسم المتوسط على المعلّم " الأهلي " وأعطاه إلى هذا الأخير، وكانّ المسألة من الأهمية بحيث تمسّ "جاء فرنسا و هيبتها" (محمد عباس، 2009، صفحة 93)

لاحظ التلاميذ هذه الحركة المشبوهة، فتعاطفوا مع معلّمهم بشكل مؤثّر، قائلين: " لقد نقلوك لأنك جزائري، أليس كذلك "، فأجابهم المعلّم : "بما أنكم فهمتم، فلا تنسوا "، وفي القسم الثالث الابتدائي الذي نُقل إليه، وجد المعلّم الأهلي نفس التعاطف، واستغرب الأطفال الصّغار ذات يوم كيف أنّ المعلّم الجديد لا يضربهم، بينما كانت السيّدة فلانة لا تتحرّج في استعمال عصاها لأبسط الأسباب، فردّ المعلّم ذو النّبرة الجزائرية بالقول: " ألم تفهموا السّبب ؟ إنّها فرنسية، أمّا أنا منكم، وما جئت لأضربكم ولكن لأرتيكم "، و منذ هذا الوقت لم يحدّ المعلّم الأهلي بحاجة إل فرض الطاعة في القسم، بعد أن تكوّن نوع من التّواصل الخاص بينه وبين تلامذته، وبفضل هذا التّواصل كان المعلّم يلجأ أحيانا إلى استعمال اللهجة المحليّة لتبليغ ما يُناقض الأيديولوجية الاستعمارية أو التّفسير الفرنسي للتاريخ، كما فعل في تدريس "معركة بواتي" (بلاط الشهداء)، ومع توالي الأيّام نقل محمد الشريف الساحلي إلى قسنطينة، التي لم يذق فيها طعما للرّاحة بسبب ملاحقة الشرطة و مضايقتها له (محمد عباس، 2009، صفحة 94)

إنّ الحديث عن بدايات المشوار التّعلّمي والعلمي للسّاحلي، يجذبنا إلى الوقوع في تصوّرات شديدة المراس، خاصة إذا استحضرنّا حجم الصعوبات التي صادفت نظرائه من الجزائريين المثقّفين في سبيل الحصول على رخصة للتّعليم ، أو في سبيل البحث عن فرصة للعمل تكون بعيدة عن مقصّ الرّقيب، فالواقع الذي عايشه

هؤلاء قد كشف بلا مرأ عن نوايا الاحتلال الفرنسي، ليس فقط في مجال التخريب و التهديم، وإنما في مجال تسميم الثقافة وتلويث منابع الأصالة لأفراد البلد المستعمر مثل الجزائر، وعموما فقد كان الساحلي "مثالا لجهة التحرير الوطني في بلدان شمال أوربا، وبعد الاستقلال عُيّن سفير الجزائر في الصين وتشيكوسلوفاكيا" (محمد بن اسماعيلي، 2013، صفحة 286)، وقد توفيّ في الخامس من شهر جويلية من عام 1989 بالجزائر (Achour CHeurfi، 2001، صفحة 313)، له عدّة مؤلّفات من بينها: رسالة يوغرطة 947م، مؤامرة ضدّ شعوب إفريقيا سنة 1950م، الأمير عبد القادر الجزائري 1949م، الأمير عبد القادر فارس العقيدة، تجريد التاريخ من شوائب الاستعمار سنة 1965م (محمد بن اسماعيلي، 2013، صفحة 286)، ومّا هو معروفٌ عنه تعلّقه الشديد بشخصية الأمير عبد القادر الذي كتب من أجله ولأجله خصوصا بعد التعديّ السافر على تاريخه من قبل بعض المؤرّخين الكولوناليين المعروفين بحساسيتهم تُجاه ما له علاقة برموز الدولة الوطنية ومقوماتها، ونجد الساحلي في كتاباته قد تطرّق إلى أمير الجزائر سواءً ثناءً أو مرافعةً أو إخلاصاً و إكباراً، ما جعله يُسجّل كأحد المؤرّخين عناية بتاريخ الأمير والأكثر توصيفا وتحليلا لذهنيّته ومواقفه على حدّ سواء.

2.1 الأمير عبد القادر الجزائري:

ولد الأمير عبد القادر الجزائري بن محي الدين الحسني الجزائري في شهر ماي من سنة 1807م الموافق ل: 23 رجب سنة 1222 للهجرة بقرية "القيطنة" الواقعة بوادي الحّمّام التابعة لولاية معسكر (جيلاني ضيف، 2013)، وقد قال عن نفسه: "إنّني عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى بن محمد بن المختار بن عبد القادر بن أحمد بن محمد بن عبد القوي بن يوسف بن أحمد بن شعبان بن محمد بن المختار ابن إدريس ابن إدريس ابن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن فاطمة بنت محمد رسول الله وزوجة علي بن أبي طالب عمّ الرسول، كان أجدادنا يقطنون المدينة المنوّرة، وأوّل من هاجر إليها هو إدريس الأكبر الذي أصبح فيما بعد سلطانا على المغرب، وهو الذي بنى فاس، وبعد أن كثر نسله توزّعت ذرّيّته، ومنذ عهد جدّي فقط، قدمت عائلتنا لتستقرّ في (أغريس) قريبا من (معسكر) وأجدادي مشهورين في الكتب والتاريخ بعلمهم و احترامهم و طاعتهم الله" (بسّام العسلي، 1980، صفحة 34).

لقد وُلد الأمير في بيئة من الدراسة والورع، وكان أوليائه معلّميهِ الأوائل، كانت أمّه "لالة الزهرة" التي سيكنّ لها فيما بعد حبّاً جمّاً، امرأة ذات تعليم و نبل روحي، وكان أبوه "سي محيي الدّين" قائد الطريقة القادرية يُشرف على زاوية ويتمتع بسمعة كبيرة من القداسة، وقد تعلّم عبد القادر الصّغير الكتابة والقراءة في القرآن الكريم، الأمر الذي أدهش والده فأوكل أمره منذ سنّ السابعة لـ: "سي أحمد بن الطاهر" قاضي آرزبو والعارف بشؤون أوربا، حيث دأب على تعليمه الرياضيات وعلم الفلك والجغرافية والتاريخ من خلال المسعودي وابن خلدون وقد أثر فيه أيّما تأثير، و هكذا بدا الأمير عبد القادر تلميذا لامعا واكتسب أسس ثقافة جادة (محمد الشريف السّاحلي، 2008، صفحة 20)

كما كان الأمير أيضا يدرس القواعد وفقه اللّغة لفائدتهما الجلّي في فهم النصوص المقدسة، وكذلك أجاد في الفلسفة، و استهوته علوم أخرى غير دينية مثل: **الأقرباذين** (علم الأدوية)، وبينما كان مقتنعا بالفكرة الإغريقية . العربية المتعلقة بمادة أساسية مدركة للعقل فإنّ دراسة ابن خلدون ومفهومه للتاريخ أثّرت كثيرا على هذا الشاب المتدين الورع: هل يصنع الإنسان التاريخ بينما "الله" هو الكلّي العلم وسيّد الكون؟، هل يهتّم "الله" و هو السبب الكلّي، بالأسباب الثانوية؟ كانت هذه القضية تُربكه، خاصة وأنّه قد لاحظ سريعا أنّ معلّمه "سي أحمد الطاهر" كثير الاطلاع على الأشياء الدنيويّة والعلمانية، وهو يتلقّى كمّية من المعلومات والكتب من قبل يهود مستغانم وتبيّن لعبد القادر أنّ الأوروبيين، رغم ابتكار العرب للجغرافية وممارستهم لها هم في طريقهم لابتكار علم جديد، ينبغي الحذر منه كثيرا، وهو يُسمّيه (الإستراتيجية) المستمّدة من كلمة وجدها لدى مؤلّف إغريقي استخدمها في روايته عن رحلة "ابن بطوطة الطنجي" والرّحالة المغربي الكبير، وهو يقول عن هذه الإستراتيجية: (أنّها أشدّ قوّة من خُدع القانون الإسلامي) وكان يبدو رصينا عندما يلخّ على عبد القادر ليترك قليلا الأحكام الدينية وينصرف إلى الأوضاع الحالية، ثم يوشوش له وهو خجل: "لا تقل هذا لأبيك" كان عبد القادر يبتسم بمظهر المتفهّم للأمور لكن هذا كان يطرح عليه مشكلة : أيّ على حق؟ "الله"، أم والده، أم معلّمه؟ (برونو إيتين، 1997، صفحة 66)

إنّ هذه الأمور قد شكّلت للأمير فكرا ذهنيا خالصا، وبعدا ثقافيا متميّزا، جعلت منه مع مرور الوقت قامة فارهة في البذل و العطاء ، و لسانا ناطقا وقائلا للحكمة والوعظ، فمعاصروه . حسب السّاحلي . لم

يُحْطِئُوا فِي شَأْنِهِ قَطْ إِذْ نَحْنُ اعْتَمَدْنَا شَهَادَةَ "بوجولة" فِي "دراساته الإفريقية" حَيْثُ يَقُولُ: "يَرْدَدُ الشَّعْرُ الْعَرَبِيَّ بِأَنَّ فِكْرَ الْأَمِيرِ أَوْسَعَ مِنَ الْبَحْرِ وَبِأَنَّهُ أَعْلَمُ الْعُلَمَاءِ وَعَالِمُ الْمُرَابِطِينَ وَبِأَنَّ كِبَارَ الطَّلَبَةِ يَنْحَنُونَ أَمَامَ عِبْقَرِيَّتِهِ وَبِأَنَّ الرِّسَالَةَ الَّتِي تَوَجَّهَ لَهُ لَا تَظَلُّ بِدُونِ جَوَابٍ وَيَسْتَعْمَلُ دَائِمًا أَجْمَلَ الْعِبَارَاتِ وَأَصْفَاهَا، وَمَعَ ذَلِكَ يَخْبِرُنَا أَصْدِقَاؤُهُ بِأَنَّهُ حِينَ يَمْتَطِي جَوَادَهُ الْأَسْوَدَ يَبْدُو مُتَوَاضِعًا كَطِفْلِ صَغِيرٍ وَيُغَطِّي نِصْفَ وَجْهِهِ" (محمد الشريف السّاحلي، 2008، الصفحات 19-20)

لَقَدْ عَاشَ الْأَمِيرُ إِذْنِ ثَلَاثِ مَرَاهِلٍ مُمْتَزَّةٍ بِخُصُوصِيَّاتِهَا وَأَحْدَاثِهَا وَدَلَالَاتِهَا؛ الْأُولَى قَضَاهَا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَتَعَرَّفَ فِيهَا إِلَى أَوْضَاعِ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ عَنْ طَرِيقِ الْحَجِّ، وَالثَّانِيَةَ عَاشَهَا فِي الْجِهَادِ وَمَقَاوِمَةِ الْعَدُوِّ، أَمَّا الثَّالِثَةُ فَقَضَاهَا فِي دِيَارِ الْغَرْبَةِ أُسِيرًا فِي فَرَنْسَا وَمَجَاهِدًا مُحْتَسِبًا فِي "بُورْصَةِ" وَدِمَشْقَ، وَحُطِّي بِوَصْفِ الْعَدِيدِ مِمَّنْ اتَّصَلَ بِهِمْ، أَوْ تَعَرَّفَ إِلَيْهِمْ أَوْ تَعَامَلَ مَعَهُمْ، فَكَانُوا فِي مَجْمَلِهِمْ يَشِيدُونَ بِخُصَالِهِ وَيَفْتَخِرُونَ بِسَجَايَاهُ وَيَقْدِّرُونَ مَوَاقِفَهُ وَيَعْتَزُّونَ بِبَطُولَاتِهِ وَهَذَا يَتَطَلَّبُ مَتْنًا فِي إِطَارِ رَسْمِ صُورَةٍ صَادِقَةٍ وَمُعَبَّرَةٍ لِهَذِهِ الشَّخْصِيَّةِ الْمُتَمَيِّزَةِ، الرَّجُوعُ إِلَى كِتَابَاتِ هَؤُلَاءِ وَالِاسْتِشْهَادِ بِهَا لِأَنَّهَا فَضْلًا عَنِ الْأَوْصَافِ الَّتِي تَتَضَمَّنُهَا فَهِيَ تَسَاعِدُ الْقَارِئَ أَيْضًا عَلَى تَحْدِيدِ أَعْيَادِ شَخْصِيَّةِ الْأَمِيرِ وَالتَّعَرُّفِ عَلَى سِرِّ نَجَاحِهِ (ناصر الدين سعيدوني، 2007، صفحة 155)

لَكِنْ رَغْمَ الْكُتَابَاتِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي كُتِبَتْ عَنِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْقَادِرِ الْجَزَائِرِيِّ حَتَّى الْآنَ، فَإِنَّا لَا نَجِدُ لَهُ تَرْجُمَةً شَخْصِيَّةً وَافِيَةً فِي أَيِّ لُغَةٍ، فَالْفَرَنْسِيِّونَ الَّذِينَ اِهْتَمُّوا بِالْأَمِيرِ، وَلَا سَيِّمًا بَعْدَ 1847م، وَالَّذِينَ يَمْلِكُونَ عَنْهُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ وَثَائِقَ أُسَاسِيَّةٍ عَنْ حَيَاتِهِ وَعِلَاقَاتِهِ وَمَجَالَاتِ تَفْكِيرِهِ، لَمْ يَكْتُبُوا عَنْهُ إِلَّا أَشْيَاءَ مُتَفَرِّقَةً مُوجَّهَةً تَرْمِي فِي الْغَالِبِ إِلَى إِثْبَاتِ تَفَوُّقِهِمْ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَتَحْدِيرِ الْجَزَائِرِيِّينَ بِإِثْبَاتِ صَدَاقَةِ الْأَمِيرِ لِلْفَرَنْسِيِّينَ بَعْدَ حَرْبِهِ لَهُمْ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، وَلَعَلَّ أَفْضَلَ تَرْجُمَةٍ شَخْصِيَّةٍ هِيَ الَّتِي كَتَبَهَا عَنْهُ السَّيِّدُ "الْأَسْكَندَرُ بِيلْمَارُ" وَالَّتِي نَشَرَهَا سَنَةَ 1863م أَيَّ قَبْلَ عِدَّةِ سِنَوَاتٍ مِنْ ظَهُورِ تَرْجُمَةِ "شَارْلُ هَنْرِي شَرِشَل" لَهُ، وَلَكِنْ كِتَابُ بِيلْمَارَ، كَمَا يَنْصَرُّ عَلَى ذَلِكَ الْعِنَوَانِ الْفَرَعِيِّ، لَا يَتَنَاوَلُ سِوَى الْجَانِبِ السِّيَاسِيِّ وَالْعَسْكَرِيِّ فِي حَيَاةِ الْأَمِيرِ، وَبِذَلِكَ تَظَلُّ الْجَوَانِبُ الرُّوحِيَّةُ وَالْفِكْرِيَّةُ وَالْاجْتِمَاعِيَّةُ مُهْمَلَةً فِيهِ، وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى فَإِنَّ كِتَابَ بِيلْمَارَ كُتِبَ قَبْلَ عِشْرِينَ سَنَةً مِنْ وَفَاةِ الْأَمِيرِ، وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ فَتْرَةَ غَيْرِ قَصِيرَةٍ مِنْ حَيَاتِهِ لَا يَتَنَاوَلُهَا الْكِتَابُ مِنْ قَرِيبٍ أَوْ

من بعيد (شارل هنري تشرشل، 1974، صفحة 7)، يأتي بعد ذلك كتاب الكولونيل "بول آزان" عن الأمير عبد القادر الجزائري الذي ظهر سنة 1925م وهو كتاب فيه الكثير من التحليل والاجتهاد الشخصي في تفسير النصوص، ولكن يُؤخذ على المؤلف كرجل عسكري انساق وراء القاعدة التي تقول "عظمتك في عظمة عدوك"، فهو باعتباره مؤلفاً عدّة كتب عن الجيش الفرنسي بالجزائر، يريد أن يُثبت مكانة عالية لقواد هذا الجيش كوّهم كانوا يحاربون خصما عنيدا جديرا بهم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ كتاب آزان يسير في خط واضح سار عليه معظم الكتاب الفرنسيين وهو أن الأمير أصبح بعد سنة 1847م صديقا وفيا لفرنسا (شارل هنري تشرشل، 1974، صفحة 7)، هذا الخط يُفسره العنوان الفرعي للكتاب الذي يقول " الأمير عبد القادر من التّعصّب الإسلامي إلى الوطنية الفرنسية " **Abd el kader 1808/1883 du fanatisme musulman au patriotisme francais** ، وفي كتابه هذا يتهم العقيد آزان الأمير بالتّعصّب، بيد أنّ هذه التهمة مردودة وباطلة تماما، وهذا بالنظر إلى ما هو معروف عن الأمير من سعة أفق وأخلاق عالية وروح إنسانية جمّة، وهي الصفات التي انتزعت إعجاب الخصوم أنفسهم والسمعة التي يتمتّع بها (محمد الشريف السّاحلي، 2008، صفحة 7)

وبالرغم من أنّ كتاب آزان يغطّي كلّ حياة الأمير، فإنّه مثل كتاب بيلمار يظلّ مركّزا على الجوانب السياسية والعسكرية من حياته، أمّا أعمال "ليون روش" **L. Roches** والجنرال "دوما" **daumas** وغيرهما من الضباط و القناصل والمترجمين الفرنسيين الذين شغلوا لدى الأمير مناصب معيّنة، فإنّها تدخل في الانطباعات الشخصية والأحداث الشاملة أكثر من كونها أعمالا متكاملة عن حياته (شارل هنري تشرشل، 1974، صفحة 8)

كما أفرد الألماني "يوهان كارل بيرنت" في كتابه "الأمير عبد القادر" جزءا هامّا من سيرة الأمير المميّزة، جمعها في مقالات ومذكرات، ومحتوى هذا الكتاب يحمل أحيانا طابع السّيرة في قالب سرد المذكرات الشخصية، فبرنت يروي وقائع متعدّدة ومتنوّعة لما عاشه ورآه، ويميل إلى الوصف الذي كان في بعض

الأحيان يبدو وصفا أدبيّا، وهو ما بدا جليّا في تعابيره وكلماته (جيلاني ضيف، 2013، الصفحات 190-191)

أمّا الترجمة الشخصية العربية عن الأمير فلا تكاد توجد، وإذا كانت "تحفة الزائر" لابنه محمد تُعتبر حتى الآن أفضل مرجع عنه . حسب أبو القاسم سعد الله الذي قدّم لكتاب تشرشل "حياة الأمير عبد القادر" . فإنّها ليست خالية من العيوب الأساسية، ذلك أنّ افتقارها إلى المنهج، واحتواءها على المبالغات وأسلوبها العاطفي تنزع عنها صفة الترجمة الشخصية الجادة، بالإضافة إلى اعتماد الأمير "محمد" على نُقول غير منظّمة من الكتب الأجنبية عن الأمير عبد القادر، ولا نكاد نجد في الكتابات الأخرى عنه سوى الالتزام العاطفي نحوه، إعجابا ببطولته الشخصية أو بمواقفه السياسية، أمّا الرّوح العلمية المجرّدة والمناقشة الهادئة لدور الأمير سواء في الجزائر أو خارجها فلا وجود له بالعربية أيضا (شارل هنري تشرشل، 1974، صفحة 8)

علاوة على ذلك، نجد العديد من المؤلّفات العربية حول الأمير عبد القادر الجزائري، على غرار مؤلّف "بسام العسيلي" الموسوم بـ "الأمير عبد القادر الجزائري" الذي قدّم فيه حياة الأمير وأصوله ونسبه، بالإضافة إلى ما أدّاه من أدوار إنسانية واجتماعية وسياسية، ساقها كلّها ضمن تسلسل كرونولوجي للأحداث وفق وقوعها.

كما تُصادفنا ترجمة أخرى لكتاب "شارل هنري تشرشل" المعنون بـ "حياة الأمير عبد القادر"، حيث تتطرّق هذه الترجمة إلى الحوادث السياسية والعسكرية التي شكّلت عنصرا هاما في حياة الأمير، زدّ على ذلك فإنّها إلى جانب ذكره للرّوح الدينية والمواقف الإنسانية، فهي كذلك تُعتبر اهتماما بالبحث ذاته (شارل هنري تشرشل، 1974، صفحة 9) أنّ الأمير عبد القادر، قد أسالت ملحمته حبرا كثيرا، حتى قيل بأنّ أكثر من ألف كتاب قد ألّف حوله، ولا يبدو أنّ اهتمام الناس سينصرف عن تاريخه الحافل، فبالأمس أيضا أشار كاتب إنجليزي إلى صورته في كتاب عنوانه: "صقر الصحراء" (محمد الشريف الساحلي، 2008، صفحة 11). وفي خضمّ ذلك كلّ، ظهر المؤلّف العربي "محمد الشريف الساحلي"، مقتحما ميدان الأعمال المخصّصة للأمير عبد القادر الجزائري"، بمؤلّفين ذكرناها آنفا في بدايات هذه الدراسة،

على أن تكون دراستنا متوقفة هاهنا عند كتابه " الأمير عبد القادر فارس الإيمان"، وبعض المقتطفات من تأليفه الأخرى.

2. الأمير عبد القادر في كتاب "الأمير عبد القادر فارس الإيمان" للساحلي ومؤلفات أخرى

خصّص "محمد الشريف الساحلي" جزءا كبيرا من مؤلفاته لصالح شخصية قال بأنّها لم تمل القدر الكافي من الدراسة والإلمام، إذ حاول بقلمه الفرنسي أن يشكّل الصورة الكاملة لمقاوم جزائريّ فذ، أفنى حياته في سبيل مقاومة الاحتلال الفرنسي لبلاده من جهة، وكذا بغية إرساء أسس المبادئ والمثل، التي مافتى يناضل من أجلها، قصد غرسها في العقول وتوطيدها في النفوس.

إنّ كتابه الذي ترجمه "محمد يحياتن" إلى العربية، حاول أن يضع القارئ من خلاله في حقل دلاليّ من المفاهيم، تُترجمها جملة من الأحاسيس الوطنية والروحية التي تتشعّب بها إنسانيّة رجل مقاوم ونبه، ويقول عن ذلك "شيخ بوعمران" رئيس المجلس الإسلامي الأعلى الذي وضع تمهيدا لهذا الكتاب "إنّ التكرم الذي أقدم عليه محمد الشريف الساحلي لشخص الأمير يتّسم بالروية والقسط وهو جدير بأن يقرأ ويتأمل كما هو الحال بالنسبة لكتابه الثاني الذي وضعه حول الأمير في 1988م تحت عنوان: **L emir Abd el kader Mythes Français et realites algeriennes** (الأمير عبد القادر:

الأساطير الفرنسية والحقائق الجزائرية) (محمد الشريف الساحلي، 2008، صفحة 8)

ومن خلال كتاب "الأمير عبد القادر فارس الإيمان" سعى محمد الشريف الساحلي إلى البحث في تكوين الأمير وذهنية حدائته وأخلاقياته، وعلمه ودينه، وتصوّفه وتسامحه وتألقه، ليسموا بذلك إلى صفة التّقاء، ويتّصل بعنوان "فارس الإيمان" بلا منازع، كما حاول أيضا أن يستشفّ سرّ العبقريّة في تفكيره وكذا أهميّة الفكر والعلم والثقافة في حياته، حتى أصبح قبل القائد شاعرا، وقبل المسؤولية إنسانا؛ "فالأساس الاجتماعي والثقافي الذي انطبعت به شخصية الأمير عبد القادر متّسم بهذه التنشئة الاجتماعية، حيثُ كان تكوينه الثقافي تكوينا حضريا برجوازيا مثقفا" (عبد السلام فيلاي، 2013، صفحة 120)، وربما من تلك المنابع صنع لشخصيّته مكانا رفيعا، ليس في النفوس وحسب، وإنّما حتى في المؤلّفات والمقالات النصوص.

في الواقع كان لا بدّ من انتظار الساحلي كي يُلقِي الضوء على الأمير باللغة الفرنسية، من قِبَل أحد مواطنيه المؤهلين أيّما تأهيل، فقد شهد كتابه "عبد القادر فارس الإيمان" بالفرنسية الذي صُدر في الجزائر عام 1946م نجاحا مستحقا فور صدوره، وقد أُعيد طبعه مرّتين، في حين يذكر "محمد عباس" في كتابه "مثقّفون في ركاب الثورة"، أنّ الساحلي بصدد التحضير لمشروع تأليفي آخر، أو بالأحرى جاهز للنشر موضوعه "الأمير عبد القادر و الخرافات التي اختلقها الاستعمار حوله"، ويتضمّن فصلا خاصا عن الأمير والحركة الماسونية، حول هذا الفصل الأخير، ألقي الأستاذ الساحلي محاضرتين بالنفق الجامعي ومتحف المجاهد، هزّتا الأوساط الماسونية بباريس التي بادرت على الرّد عليه واتّهامه " بالوطنية الضيقة" (محمد عباس، 2009، صفحة 203)

وبالعودة إلى كتاب "عبد القادر فارس الإيمان"، فقد عرّض فيه السّاحلي كمّا وفيرا من المعلومات القيّمة لم ينشرها أحدٌ من قبله عن ذلك المقاوم الفذ المناهض للاستعمار، وفي الوقت نفسه سلّط الضوء على جوانب كثيرة من شخصيته (36) التي تأثّر بها كثيرا وأسهب في ذكر مثالبه وأخلاقه؛ فتوقّف عند محطّات تحسّيد حُبّه للعلم والفكر "لقد أفتنّته التجربة والتأمل أكثر فأكثر بأنّ سلطان الرّجال والأمم يقوم على العلم، كان يحلو له أن يُكرّر قول الشاعر العربي الذي يرى أنّ القلم منذ أن برئ أصبح عبدا للسيف منذ أن شحذ" (محمد الشريف السّاحلي، 2008، صفحة 25)، وكذا قيمة الإنسان في الحياة "واجب الإنسان هو تطوير ذاته والتطلّع دائما إلى اكتمالها وجمالها" (محمد الشريف السّاحلي، 2008، صفحة 33)، بالإضافة إلى استعراضه لموقف الأمير من الخلافات القائمة بين المسلمين والمسيحيين، والتي اعتبرها . أي الأمير. بأنّها "لا أساس ديني لها؛ ذلك أنّها تنشأ نتيجة التناقضات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي كان عُنّفها فيما مضى الحكم (بفتح الحاء) الوحيد" (محمد الشريف السّاحلي، 2008، صفحة 43)، ناهيك عن تأثّر الناس به وثقتهم في شخصه، حيث يذكر لنا السّاحلي: "ذات يوم وفي أحلك ظروف مسيرته، بينما كان كلّ شيء يوحى بأنّ الأمر ميؤوس منه، استقبل الأمير أحد أثرياء منطقة وهران، وضع هذا الرّجل الذي جمع ثروة هائلة مئات الألوف من الفرنكات عند رجل عبد القادر وقال له: أهبك جميع ما أملك، إنّّه لك، إنّ انتصرت ولم تكن البلاد في حاجة إلى هذا المال، فسيكون هناك مُتّسع للوقت

لإرجاعه، وإن هُزمت فلن أندم عن توضيحي بمالي من أجل قضية ضحيت من أجلها بكل شيء" (محمد الشريف السّاحلي، 2008، صفحة 53)، وهناك حادثة أخرى دالة على ما للأمير من جاذبية، ذات يوم، عند عتبة خيمته، تقدّم زنجي مسكين رشاه شخص ما كي يقتله، غير أنّه تسمرّ في مكانه عند رؤية عبد القادر وهو يرأس مجلساً شامخاً عزيزاً وهادئاً وبسيطاً، فاعتري الزنجي الندم فأخذ يُكسّر خنجره وارتمى عند رجل الأمير قائلاً: كنت أتاّهب لتقتلك غير أنّ مظهرك جعلني أعزل لأنّي توسّمت حول رأسك هالة الرّسول، نهض عبد القادر بوقار وبرودة أعصاب ثمّ وضع يده على جبين المسكين: دخلت هاهنا قاتلاً، والله الذي يرضى على التوبة قد قضى أن تخرج وقد أمسيّت رجلاً أميناً (محمد الشريف السّاحلي، 2008، الصفحات 53-54)، هذا ما يعكس بعد الوفاء والإخلاص في قيم الأمير عبد القادر وأخلاقه السّامية، وعليه فإنّ سرّ نجاحه الباهر . يقول السّاحلي . وإغوائه المعنوي المؤثّر يجب البحث عنه في طبيعة روحه واستعداداته الاستثنائية المتناسقة والمتوازنة كي تحبّ أكبر قسط من التّجاعة والوسامة لشخصيته، في هذا الباب، لا نملك إلّا استحضار العبارة التي تليق به: **فمّ وقلب من ذهب وإرادة من حديد وجسم من فولاذ** (محمد الشريف السّاحلي، 2008، صفحة 55)

كما أطلّعنا السّاحلي على حقائق جدّ مفيدة في كتاب آخر له بعنوان "الأمير عبد القادر، أساطير فرنسية

وحقائق جزائرية **L'Emir Abd-el-Kader-Mythes Français et réalité**

Algeriennes ألّفه قبيل وفاته عام 1989م، وهو بمثابة مجموعة من الدراسات التي تردّد بالمنهج العلمي التاريخي على مختلف التشويّهات التي ألحقها المؤرّخ الفرنسي بالأمير عبد القادر، كما عدّد أيضاً بعض أخطاء الأمير، وقام بتحليلها مع إيجاد الدّرائع لها، ويمكن لنا القول أنّ هذا الكتاب رغم صغر حجمه، أنّه أفضل ما كتبه الجزائريون عن الأمير عبد القادر إلى حدّ الآن (رابح لونيسي، 2012، صفحة 193)

إنّ تمسّك السّاحلي بشخصية الأمير نجده واضحاً أيضاً من خلال دفاعه عن مواقفه مع الإدارة الفرنسية، حيث سعى إلى تبرئته من التّهم المنسوبة إليه، وذلك في كتابه الآخر الموسوم بـ "تخليص التاريخ من الاستعمار"، حيث خصّص في الفصل الثاني من هذا الكتاب لتقديم قراءة نقدية لـ: "الشروط

الأيدولوجية والنظام الاستعماري"، والذي تطرّق فيه بشكل مُعمّق إلى الأمير عبد القادر وثورة 1871م، وقد استعرض السّاحلي تفاصيل هذه الثورة التي "نصب رين نفسه ناطقا رسميا على وقائعها الرسمية" (محمد الشريف السّاحلي، صفحة 27)، ويبيّن بوضوح كيف سعت الإدارة الفرنسية إلى تزوير هذه الثورة وإظهار الأمير بصورة غير التي أَلَفها شعبه وكلّ معجبيه، يحدثُ هذا في الوقت الذي يتساءل فيه المرء عن سبب الأباطيل المحاكاة ضدّ الأمير؟ ولماذا وضعته الإدارة الاستعمارية تحت مقصّر الرّقيب "نجد الأمير الذي عزّ إليه التاريخ مجموعة من الرّسائل التي تدين الثورة (ثورة 1871)، وتجهّر بولاء مفاجئ حماسيّ لفرنسا" (محمد الشريف السّاحلي، صفحة 26)؛ وقد خصّص السّاحلي مُلاحقًا وصفيًا وضع فيه بعض النّصوص المنسوبة إلى الأمير عبد القادر، وهي نصوص مُحرّفة (محمد الشريف السّاحلي، الصفحات 43-41).

إذا أردنا استقراء جميع جوانب الأمير، فإنّ ذلك حتما سينطلّب منّا جهدا مضاعفا و مزيدا، لكن أغرب ما يستوقفنا في مسيرته هو تواضعه و تقشّفه وحبّه للحياة و العيش على طريقته هو، لا على طريقة غيره، وبالتالي فإنّ لتقشّف الأمير جذورا عميقة في نفسية الشعب الجزائري الذي كان يطالب دائما بأن يتحلّى قاداته بالأخلاق المثالية، وقد كانت "الدوناتية والخوارج شاهدا على ذلك، وكان أيضا ممثلا لأسمى سنّة إسلامية كان الرسول نفسه مصدرا لها، وذات يوم دخل العقيد "دوما" إلى زنزانتة فوجده يرتعد من شدة البرد (محمد الشريف السّاحلي، 2008، صفحة 72):

. لمْ لمْ توقد النار كي تتدفّأ؟

. لقد استنفذت حصّتي من الفحم ، ردّ عليه.

. ولكن أصحابك لازال لديهم فحم، لمْ لمْ تطلب منهم شيئا منه؟

. كيف آخذ حصّة أصحابي؟ أنت لا تعرفني جيّدا، فلو مازال عندي فحم لأعطيتهم إيّاه.

. أنت إذن مُغاير للقادة الآخرين؟

. لو كنت على شاكلتهم، أظنّ أنّ العرب سيّبعوني طيلة خمس عشرة سنة، مُضحّين بكل شيء: الأمن

والأملاك والحياة

وهذا الكلام يمكن اعتباره طبعاً غيضاً من فيض بالمقارنة مع ما يتمتع به الأمير من مزايا ومثل وإنسانية، وحسب الباحثين فإنّ البعد الإنساني في شخصية الأمير لم يكن محور التحرّر للجزائر فحسب، بقدر ما كان المعادل الموضوعي لتحرّر الأوطان المفقودة (عبد القادر فيدوح، 2021، صفحة 69)؛ فمساعيّه الإنسانية تدعو إلى توفّر الأمن والأمان؛ لأنّ ذلك في نظره يفتح أمام الإنسان مجالات الإبداع، من منظور أنّ الهدف الأسمى للإنسانية يكمل في النضج الكامل للذات بالتضحية مع الجماعة، من أجل بعث الحرية من تلك الشجرة الوارفة الظلال، التي تمتد جذورها في تربة نضال الأمير وإنسانيته السّمحاء (عبد القادر فيدوح، 2021، صفحة 69)، والواضح أنّ قيمه الإنسانية التي يتسم بها قد شهد لها العدو قبل الصديق، وذلك من خلال القراءات الكثيرة المتواترة في أمّهات الكتب بشأن معاملاته الحسنة للأسرى، ويذكر محمد الشريف السّاحلي أنّ "الأسرى كانوا يصلون إلى معسكرات الأمير وعقوبهم ملأى بالخرافات حول وحشية الجزائريين، فكم كانت مفاجئهم كبيرة حين استقبلوا بلطافة وكثير من العناية، وقد صعب على البعض تصديق ما رأوا، كانوا يتساءلون ما إذا لم يكونوا يحلمون" (محمد الشريف السّاحلي، 2008، صفحة 108)، كما أنّ الأمير لم يكتف بنصح ذويه بالرفق بالأسرى، بل كان يعطي المثال والقدوة، في هذا الباب، تنسب له العديد من الأفعال امتزج فيها نبلة الأبى بطيبته، وبلغ فيها حلمه درجاته القصوى (محمد الشريف السّاحلي، 2008، صفحة 110).

وتبعاً لذلك فقد صوّر لنا السّاحلي العديد من المواقف النبيلة والمشرفة للأمير عبد القادر الجزائري، واستدلّ على كلّ موقف بتجارب الأمير نفسه حينما كان يخوض الجهاد ضدّ الاحتلال الفرنسي، لكن أغلب القراءات التي قدّمها لنا تكاد تكون محلّ ذكرٍ من طرف أغلب الباحثين والمؤرخين الذين كتبوا عن سيرة ومسيرة الأمير، اللهم إذا استثنينا بعض المواقف التي كان فيها السّاحلي حريصاً على تبيان وطنيّة الرّجل وموضوعيته تجاه بعض القضايا المصرية التي تخصّ المواطن والوطن على حدّ سواء.

خاتمة:

يمكن القول في ختام هذه الورقة البحثية أنّ حياة الأمير عبد القادر الجزائري تُعجُّ بمآثر جهادية خالدة، ترجمتها قيمه وشيّمه الإنسانية المتأصلة بماضي أجداده وتراثهم، فضلا عن سعته الفكرية وتبصّره الفلسفي بأمور الدنيا وما بعدها، والتأبّج أساسا من صفاء سريرته، وروح العقيدة التي منهجت له سبيل العمل الذهني المُفضي إلى كلّ تحديد وبناء، وعليه فقد تمكّن محمد الشريف السّاحلي من تقديم قراءات فاحصة وناقدة لشخصية الأمير عبد القادر الجزائري بطريقة منهجية وعلمية سليمة، الأمر الذي سمح لمؤلفاته تلقى الرّواج من لدن الباحثين عموما، وبالتالي فقد أفصح عن طريقة جديدة لمجابهة الرّدود السّلبية التي غالبا ما تُصيب الشخصيات الوطنية ذات التأثير والجاهزية.

. إنّ عناية المؤلّفات الأجنبية والعربية بشخصية الأمير عبد القادر، لدليل على ثقل هذه الشخصية على المستوى الوطني كما الدولي، لكن الإشكالية التي تبقى مطروحة إلى غاية اللحظة تتمثّل في الضبابية التي تشوب القراءات التاريخية حول الأمير، بالإضافة إلى ظهور حقائق جديدة كلّ يوم؛ منها ما يمجّد الشخصية ومنها من يحاول إثبات العكس، وبالتالي إلى متى سيُلقي القارئ ضالّته المعرفية في ظلّ تناقض الحقائق وتناقرها؟ وهل سنصل يوما إلى ثبوت تاريخي يضع الأمير على سكة الحقيقة الحقّة؟

قائمة المراجع:

- ✓ بلخوجة، عمار ، 2015، الحركة الوطنية الجزائرية أبطال ومعالم ، منشورات ألفا، الجزائر
- ✓ عباس، محمد ، 2009، مثقفون في ركاب الثورة، دار هومة، الجزائر
- ✓ ريسيلير ، كميل ، 2016، السياسة الثقافية الفرنسية بالجزائر أهدافها وحدودها 1830.1962، دار كتابات جديدة للنشر الالكتروني
- ✓ بن اسماعيلي ، محمد ، 2013، أعلام وأمجاد في آفاق الثقافة الجزائرية، درا الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر.
- ✓ . ضيف، جيلاني ، 2013، الأمير عبد القادر الجزائري بين الدولة والأمة، دار أسامة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر
- ✓ . العسلي، بسّام ، 1980، الأمير عبد القادر الجزائري، دار النفائس ، لبنان
- ✓ السّاحلي ، محمد الشريف ، 2008، الأمير عبد القادر فارس الإيمان ، المؤسسة الوطنية للاتصال النشر والإشهار، الجزائر.
- ✓ برونو، إيتين ، 1997، الأمير عبد القادر الجزائري، دار عطية للنشر، بيروت
- ✓ سعيدوني، ناصر الدين، 2007، عصر الأمير عبد القادر الجزائري، مكتبة الإسكندرية، مصر .
- ✓ تشرشل، شارل هنري، 1974، حياة الأمير عبد القادر ، الدار التونسية للنشر، تونس .
- ✓ فيلاي، عبد السلام ، 2013، الجزائر الدولة والمجتمع، دار الوسام العربي، الجزائر .
- ✓ لونيسي، رابح، 2012، دراسات حول أيديولوجية وتاريخ الثورة الجزائرية ، دار كوب العلوم، الجزائر.
- ✓ السّاحلي، محمد الشريف، تخلص التاريخ من الاستعمار، الجزائر.
- ✓ فيدوح، عبد القادر ، 2021، البعد الإنساني في شخصية الأمير عبد القادر الجزائري، مجلّة الحوار المتوسّطي، الجزائر.

- ✓ Achour CHeurfi, 2001, La classe politique algérienne, Casbah Editions, Alger.